

112905 - كيف يعرف المصاب إن كانت مصيبته عقوبة أو ابتلاء لرفع درجاته ؟

السؤال

إذا وقعت للمسلم مصيبة ، فكيف نعرف هل هي عقوبة على معا�يه ، أم ابتلاء لرفع درجاته ؟

الإجابة المفصلة

للمصائب والابتلاءات في الكتاب والسنة سبيان اثنان مباشران – إلى جانب حكمة الله تعالى في قضائه وقدره - : السبب الأول : الذنوب والمعاصي التي يرتكبها الإنسان ، سواء كانت كفراً أو معصية مجردة أو كبيرة من الكبائر ، فيبيتلي الله عز وجل بسببها صاحبها بالمصيبة على وجه المجازاة والعقوبة العاجلة .

يقول الله عز وجل : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُ) النساء/79 ، قال المفسرون : أي بذنبك . ويقول سبحانه : (وَمَا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ فَبِمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) الشورى/30 ، انظر "تفسير القرآن العظيم" (2/363).

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعِنْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعَقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعِنْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِدُنْبِهِ حَتَّى يُوَافَّيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .
رواه الترمذى (2396) وحسنه ، وصححه الألبانى في " صحيح الترمذى " .

السبب الثاني : إرادة الله تعالى رفع درجات المؤمن الصابر ، فيبيتليه بالمصيبة ليرضى ويصبر فيؤتي أجر الصابرين في الآخرة ، ويكتب عند الله من الفائزين ، وقد رافق البلاء الأنبياء والصالحين فلم يغادرهم ، جعله الله تعالى مكرمة لهم ينالون به الدرجة العالية في الجنة ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنْ اللَّهِ مِئَةٌ لَمْ يَبْلُغُهَا بِعَمَلِهِ إِبْلَاهُ اللَّهُ فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ)
رواه أبو داود (3090) ، وصححه الألبانى في " السلسلة الصحيحة" (رقم/2599)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه النبي صلى الله عليه وسلم قال :
(قَالَ: إِنَّ عَظَمَ الْجَرَاءَ مَعَ عَظِيمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السُّخْطُ) .
رواه الترمذى (2396) وحسنه ، وصححه الشيخ الألبانى في " السلسلة الصحيحة" (رقم/146)

وقد جمع السبيان في حديث عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
(مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شُوْكَةٍ فَمَا فَوَّقَهَا إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً)
رواه البخاري (5641) ، ومسلم (2573) .

ثم إن التداخل والاشتراك بين هذين السببين أعظم من الصور التي ينفرد كل منها به :
الآتى أن من ابتلاه الله بمصيبة بسبب ذنبه فصبر وشكر غفر الله تعالى له ذنبه ، ورفع درجته في الجنة ، ووفاه أجر الصابرين المحتسبين .

كما أن من ابتلاه الله بالمصيبة ليبلغ المنزلة الرفيعة التي كتبها له في الجنة ، تکفر عنه ذنبه السالفة ، وتعتبر جزاء له عليها في الدنيا ،

فلا تكرر عليه في الآخرة ، كما وقع لبعض الرسل والأنبياء : كآدم عليه السلام ، ويونس عليه السلام ، حين ابتلى الله سبحانه وتعالى آدم بالإخراج من الجنة ، وابتلى يونس بن متى بالغرق في بطن الحوت ، فرفعهما الله بهذا البلاء لصبرهما واحتسابهما الثواب عنده سبحانه ، وكانت كفارة للمخالفة التي وقعت من كل منها عليهم الصلاة والسلام .

ويدل على ذلك أن الجزاء الدنيوي لا ينفصل عن الجزاء الآخر ، وأن اقتدار ذكر هذين السببين جاء في كثير من الأحاديث النبوية الصحيحة ، منها ما رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : (قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَيُّ النَّاسِ أَشَدُ بَلَاءً ؟ قَالَ : الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الْأَمْمَلُ فَالْأَمْمَلُ ، فَيُبَثَّلُ الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقْقَةً أَبْثَلَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرُحُ الْبَلَاءُ إِلَّا عَبْدٌ حَتَّى يَتَرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا غَائِبُهُ خَطِيئَةً) .
رواه الترمذى (2398) وقال : حسن صحيح .

ومع ذلك فقد يكون أحد هذين السببين أظهر في بعض صور البلاء من السبب الآخر ، ويمكن فهم ذلك من خلال قرائن الحال التي تتعلق بتلك المصيبة :

إذا كان المبتلى كافرا : فلا يمكن أن يكون بلاؤه لرفع درجته ، فالكافر ليس له عند الله وزن يوم القيمة ، لكن قد يكون في ذلك عبرة وعظة لغيره ، إلا يفعل مثل فعله ، وقد يكون من ذلك من عاجل عقاب الله له في الدنيا ، زيادة على ما ادخره له في الآخرة . قال الله تعالى : (أَفَمَنْ هُوَ قَاتِلٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بِلْ رَبِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادِ * لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقِ) الرعد 34-33 /

وأما إذا كان المبتلى مسلماً عاصياً مجاهراً ، أو فاسقاً ظاهراً الفسق : فقد يغلب على الظن وجه المجازاة والعقوبة بهذا الابتلاء ، لأن تكفير السيئات أسبق من رفع الدرجات ، والعاصي أحوج إلى تكفير سيئاته من رفع درجاته .

وفي المقابل إذا كان المسلم عابداً طائعاً صالحاً ، ليس بينه وبين الله إلا العبودية الحقة ، والشكر والحمد والإنابة والإخبار إليه سبحانه : فهذا يغلب على الظن في ابتلاءه وجه المكرمة ورفع الدرجات ، والعباد شهداء الله في الأرض ، فإذا عرفوا فيه الصلاح كان لهم أن يبشروه برفعة الدرجات عند الله تعالى إن هو صبر على بلائه .

وأما إذا أبدى المبتلى السخط والجزع ، فلا يظن أن يكون ابتلاوته مكرمة من الله له لرفع درجاته ، وقد علم سبحانه منه عدم الصبر والرضا ، فالأقرب في هذه القرينة وجه المجازاة والعقوبة ، وقد قال بعض الصالحين : " عالمة الابتلاء على وجه العقوبة والمقابلة : عدم الصبر عند وجود البلاء ، والجزع والشكوى إلى الخلق .

وعالمة الابتلاء تكفيراً وتمحيناً للخطئتين : وجود الصبر الجميل من غير شكوى ، ولا جزع ولا ضجر ، ولا ثقل في أداء الأوامر والطاعات .

وعالمة الابتلاء لارتفاع الدرجات : وجود الرضا والموافقة ، وطمأنينة النفس ، والسكون للأقدار حتى تنكشف " انتهى .
وهكذا ، ما هي إلا قرائن ظنية يمكن للعبد أن يتأمل فيها ليعرف شيئاً من حكمة الله تعالى في المصائب والمحن ، لا ليجزم في الحكم بها على نفسه ، أو على عباد الله المبتلين .
ولعل الأهم من هذا التفصيل كله أن يقال :

إن الفائدة العملية التي ينبغي للعبد التأمل فيها هي أن كل مصيبة وابتلاء هي له خير وأجر إن هو صبر واحتسب ، وأن كل ابتلاء ومصيبة هي له سوء وشر إن جزء وتسخط ، فإن وطن نفسه على تحمل المصائب ، والرضى عن الله بقضائه ، فلا يضره بعد ذلك إن علم سبب البلاء أو لم يعلمه ، بل الأولى به دائمًا أن يتهم نفسه بالذنب والتقصير ، ويفتش فيها عن خلل أو زلل ، فكلنا ذوو خطأ ، وأينا لم يفرط في جنب الله تعالى ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أصاب المسلمين يوم أحد بمقتلة عظيمة ، وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وخير البشر بعد الرسل والأنبياء ، بسبب مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فكيف يظن المرء بعد ذلك في نفسه استحقاق رفعة الدرجات في كل ما يصيبه ، وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمة الله - إذا رأى اشتداد الريح وتقلب السماء - يقول : هذا بسبب ذنبي ، لو خرجمت من بينكم ما أصابكم .
فكيف بحالنا نحن المقصرين المذنبين .

ثم أولى من ذلك كله وأهم ، أن يحسن العبدظن بربه دائمًا ، وعلى كل حال ؛ فالله سبحانه وتعالى هو أولى بالجميل ، وهو أهل التقوى وأهل المغفرة .

نسأل الله تعالى أن يرحمنا ويغفر لنا ، وأن يعلمنا ما ينفعنا ، ويأجرنا في مصائبنا ، إنه سميع مجيب الدعوات .

وانظر جواب السؤال رقم : (13205)

والله أعلم .